@Tafsircenter

جبريل سعيد رينولدز
Gabriel Said Reynolds

"الابن الضال لنوح" في القرآن

ترجمة: مصطفى الفقي

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بجبريل سعيد رينولدز:

أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة نوتردام الأمريكية. مهتم بدراسة القرآن في سياقه التاريخي، وكذا بدراسة العلاقات بين القرآن والكتاب المقدّس، وكتَب وحرّر عددًا من الكتب والبحوث في هذا السياق.

من الكتب التي حررها:

The Qur'an in Its Historical Context, 2007

«القرآن في سياقه التاريخي»[(١)].

ومن كتبه:

The Qur'an and Its Biblical Subtext, 2010

«القرآن والكتاب المقدّس؛ كنصّ ضمني له».

The Qur'an and the Bible: Text and Commentary, 2018

كتاب: «القرآن والكتاب المقدّس؛ النصّ والتفسير، ٢٠١٩».

(١) هذا الكتاب مترجم للعربية، ترجمه: سعد الله السعدي، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ط١، ٢٠١٢.

مقدمة[1]:

تُعدّ دراسة العلاقة بين القرآن والكتب المقدّسة السابقة عليه أحد المساحات الرئيسة في الدرس الاستشراقي منذ بداياته، فيما يندرج في إطار البحث عن أصل القرآن ومصدره وعلاقته بهذا الأصل، وفي العقود الأخيرة ومع تطوّر المناهج الأدبيّة واعتماد الكثير من الدارسين عليها في دراسة النصّ القرآني؛ أخذت دراسة هذه العلاقة أبعادًا جديدة تتعلّق بدراسة إعادة تركيب النصّ القرآني للنصوص السابقة، مع ربط هذا التركيب الجديد بأبعاد تطوّر المجتمع المسلم، وإن لم يؤدِّ هذا -في كثير من الأحيان- لتجاوز الاهتمام الاستشراقي الكلاسيكي بالبحث عن (أصل) و(مصدر) النصّ القرآني.

ويعدُّ رينولدز واحدًا من أبرز الأسماء المهتمّة بدراسة السياق التاريخي للنصّ القرآني وعلاقاته بالكتب السابقة عليه، والذي يجمع إلى جوار تطبيق منهجيات أدبيّة حديثة ذاك الاهتمام الاستشراقي الكلاسيكي المشار إليه بالبحث عن مصدر القرآن، يتّضح هذا في الكتب العديدة التي كتبها أو حرّرها.

في هذه المقالة التي بين أيدينا يدرس رينولدز قصة الابن الضّال لنوح عليه السلام في القرآن، حيث يحاول أولًا دراسة التعامل القرآني مع القصة؛ كيفية بناء القرآن

---

(١) قام بكتابة المقدمة، وكذا التعريف بالأعلام والتعليقات الواردة في نصّ الترجمة، مسؤولو قسم الترجمات في موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، وقد ميّزنا حواشينا عن حواشي رينولدز بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات).

لها، كما يُمَوضِعها في سياق أوسع من القصص؛ حيث يدرس علاقة هذه القصة بعددٍ من القصص القرآني الآخر مثل قصة إبراهيم وأبيه، لتصبح -وفقًا له- جزءًا من رسم القرآن للعلاقة المُثْلَى بين المؤمنين والكافرين وأحدَ مساحات عرض هذه العلاقة داخل الأسرة الواحدة والتي شكّلت أحد أبعاد المجتمع الإسلامي الناشئ وانشغالاته، وثانيًا يحاول رينولدز تنسيب القصة، فيبحث صلة القصة القرآنية بالتوراة، ويتبيّن مصدرها في أسفارها سواء القانونية أو غير القانونية، وسواء في القصّ المباشر أو غير المباشر، وسواء في النصوص الأصلية أو في التقاليد الشارحة.

في هذه المقالة يعتمد رينولدز على عددٍ من الكتابات السابقة سواء حول القصص القرآني عمومًا أو حول نوح وابنه بالذات، ويظهر في مرجعياته المعتمدة هذا الحضور للدّرس الأدبي كما للاهتمام بتنسيب القرآن للكتب السابقة، حيث يعتمد على كتابات جيجر وشباير وغوردون نيوبي ونويفرت وكارلوس سيغوفيا، مضفيًا عليها إطارًا خاصًّا لنقاش القصة وعلاقتها بالعقائد الإسلامية وبالمجتمع الناشئ.

إنّ الهدف من ترجمة هذه الورقة لرينولدز هو عرض أحد الاشتغالات المعاصرة حول هذه العلاقة بين القرآن والكتب السابقة؛ بغية تبيُّن درجة ونوعية التطور المنهجي للدرس الاستشراقي في تعامله مع مثل هذه المساحات، والموقع الذي تحتله الفرضيات الأكثر كلاسيكية في بنائه.

المقالة[١][٢]

في سورة (هود) يَرِدُ ذِكر أحد أبناء نوح، وهو الذي رفض الصعود معه إلى الفُلك، معتقدًا أنه قادر على النجاة اعتصامًا بالجبال، لكن ما حدث هو أن طوفان المياه جرفه فأغرقه. بعد ذلك تجري محادثة بين نوح والله بشأن هذا الابن[٣]:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ

(١) ممتن لغيوم داي ومهدي شادل لتعليقاتهما على النسخة الأولية لهذا المقال. وجميع الأخطاء الواردة بها ترجع إليّ.

(٢) مترجم هذه المادة: مصطفى الفقي، كاتب ومترجِم، له عدد من المقالات والترجمات المنشورة.

(٣) يتساءل كارلوس سيغوفيا عمّا إذا كان هذا الحوار الوارد في الآيات (٤٥-٤٧) قد جاء «في غير محله» مقترحًا أنه كان لا بد أن يسبق هذا الحوارُ الطوفانَ، عندما لم يكن مصير ابن نوح قد تحدّد بعدُ.

See Carlos Andrés Segovia, The Quranic Noah and the Making of the Islamic Prophet, Berlin-Boston, De Gruyter ("Judaism, Christianity, and Islam", 4), 2015, p. 57.

بينما يرى ريجيس بلاشير أن هذه الآيات قد تم إقحامها في السياق لاحقًا.

See Régis Blachère, Le Coran, Paris, Maisonneuve, 1957, p. 250-251. He comments: "Ce développement [vv. 45-47] vient interrompre celui amorcé par le vt. 46 [44 in the Cairo edition] sur l'atterrissage de l'Arche. Il est tentant de raccrocher ce passage au vt. 42 [40] où l'expression : excepté celui contre qui la Parole a été proférée fait allusion à ce fils maudit" (250, n. on '47 à 49.('

ويتفق ريتشارد بيل على أن الآية الخامسة والأربعين كان يجب أن تأتي منطقيًّا بعد الآية الأربعين، (ويتساءل عمّا إذا كان يجب أن تحلّ الآيات ٤٥-٤٧ محل الآيات ٤١-٤٤).

See Richard Bell, A Commentary on the Qurʾān, eds Clifford Edmund Bosworth and Mervyn Edwin John Richardson, Manchester, University of Manchester Press ("Journal of Semitic Studies. Monograph",14), 1991, I, p. 359.

مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ [هود: ٤٠-٤٧][1].

تتعارض آيات سورة هود المذكورة مع تلك الواردة في الكتاب المقدّس بشأن نوح؛ يروي سِفر التكوين أنّ نوحًا «أنجب ثلاثة أبناء: سام، وحام، ويافث» (تكوين ٦: ١٠)، وأن هؤلاء الأبناء دخلوا معه الفُلك (تكوين ٧: ٧). من جانبه، يذكر القرآن هذا الابن الوحيد الذي رفض دخول الفُلك، ويناقش المقال بشكلٍ أساسٍ هذا التعارض؛ لذا سوف أطرح السؤال الآتي: لماذا يقدِّم القرآن -وهو يتجاهل الحديث عن سام وحام ويافث- روايةً عن ابن نوح الغارق في أمواج الطوفان؟ وللإجابة على هذا السؤال، سأتناول أولًا علاقة تلك

(١) All Qurʾān translations are from Quli Qaraʾi unless otherwise noted: Ali Quli Qaraʾi, The Qurʾan with Phrase-by-Phrase English Translation, New York, Tahrike Taarsile Qurʾān, 2007.

الواقعة بالسياق الأشمل المتمثّل في رفض أفراد الأسرة غير المؤمنين في القرآن. عندئذ، سأجادل بأنّ حديث القرآن عن ابن نوح غير المؤمن لا يظهر في الواقع من اللا شيء، بل يعكس التفاعل الديناميكي للقرآن مع تقاليد الكتاب المقدّس. بالحديث عن (الابن الكافر)[١] لنوح يكون لدينا مثال على كيفية تطوير القرآن لتقليد سابق وتحويله إلى رواية تستهدف تعزيز إحدى حججه الدينية المميزة.

(١) يمكن ترجمة lost son، بالابن الضال أو الآثم أو الملعون أو المتمرّد أو الكافر، وحيث إنّ المقالة تهتم بدراسة قصة ابن نوح في السياق القرآني وفي التقليد الكتابي السابق عليه، وهو في القرآن كافرٌ وفي التقليد الكتابي ضالٌّ أو ملعون أو آثم فحسب، فقد أثبتنا (الضال) كترجمة للعنوان حيث يشير العنوان لتناول القرآن لقصة الابن الضالّ في التقاليد السابقة عليه؛ الرسمية وغير الرسمية، وإعادته تركيبها لتكريس رؤاه العقدية الخاصّة، وأمّا ضمن المقالة فقد نوّعنا بين الضال والكافر والملعون على حسب تعلّق الحديث بالرؤية القرآنية أو الكتابية. (المترجِم).

موقع ابن نوح الكافر من القرآن:

في كتابه: (الله، ومحمد، وغير المؤمنين)، يقدِّم ديفيد مارشال[١] تحليلًا معمقًا للغرض الذي استهدفه القرآن بذكر قصة الابن الضال لنوح. يناقش مارشال قصة ابن نوح الكافر في سياق حجاجه الأوسع بأنّ رحمة الله في القرآن لا تتسع لتشمل غير المؤمنين[٢]. ويعتقد مارشال أن سورة هود (التي تؤرَّخ تقليديًّا أواخر الحقبة المكية)[٣] تعكس لحظةً ما في حياة محمد عندما كان

---

(١) ديفيد مارشال، قسّ إنجليزي، كاهن بكنيسة إنجلترا، وباحث في الدراسات الإسلامية، حيث حصل على ماجستير ودكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة برمنجهام، تولى التدريس في عديد الكليات والجامعات اللاهوتية في الولايات المتحدة وفي المملكة المتحدة، له اهتمامٌ كبيرٌ بحوار الأديان، وقد عمل لمدة ستة عشر عامًا كمدير أكاديمي لندوة بناء الجسور، وكتابه: (الله ومحمد وغير المؤمنين) المشار له في مقالة رينولدز، صدر عام ١٩٩٩، وهو أشهر أعماله. (قسم الترجمات).

(٢) تجدر الإشارة إلى أن القرآن لا ينصّ صراحة على أن الابن الضال لنوح كان كافرًا. إنه ببساطة يرفض الانضمام إلى المؤمنين الموجودين على متن الفُلك [الآية ٤٣]. ومع ذلك، يشير ذلك ضمنيًّا إلى عدم إيمانه، كما يقرر الله في [الآية ٤٦] التي تستنكر أن يكون أحدَ أفراد عائلة نوح. يطلق فضل الرحمن -ربما مدفوعًا بالتفكير من داخل تقاليد تفسيرية كلاسيكية معيّنة- على ابن نوح الضال وصف «الابن الوثني». انظر: فضل الرحمن، المسائل الكبرى في القرآن، شيكاغو، مطبعة جامعة شيكاغو، ٢٠٠٩، ص٤٢.

يلاحظ أن الآية التي أشار إليها الكاتب وهي قوله تعالى في سورة هود: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] تشير لعدم إيمان ابن نوح بصورة صريحة وليست ضمنية كما يقول الكاتب، وهو القول السائد في مدونة التفسير. (قسم الترجمات).

(٣) The standard Cairo edition makes it the 52nd Sura revealed. Nöldeke places it somewhat later, towards the beginning of the third Meccan period (the 75th Sura revealed). Blachère makes it 77. See Theodor Nöldeke, Friedrich Schwally, =

يصارع بصعوبة بين ما فهمه على أنه نداء الله له للنأي بنفسه عن المكيين غير المؤمنين، وبين مشاعره العالقة في التمسك بغير المؤمنين هؤلاء، وهم -كما يُروَى في السيرة- أهله (وبعضهم من خاصة أسرته). يكتب مارشال: «كان من الصعب على محمد قطع علاقاته الطبيعية مع المجتمع الذي كان يحظى فيه بتقديرٍ كبيرٍ»[١]. بعبارة أخرى، يقول مارشال: إنّ تردّد نوح نفسه في التنصّل من ابنه غير المؤمن (بإمكان المرء أن يقارن ذلك أيضًا بما ورد في الآية ٢٧ من [سورة المؤمنون] حيث الإشارة الضمنية إلى أن نوحًا كان معنيًّا بكلّ مَن أهلكهم الطوفان) ما هو إلا إسقاط نفسيّ لصراع محمد في سبيل تخلّيه عن أهله غير المؤمنين[٢]. تعكس الطريقة التي أخضع بها نوح نفسه -مترددًا وعلى مضض- لإرادة الله؛ كونه تخلّى عن ارتباطه بابنه غير المؤمن، العملية التي استطاع محمد من خلالها أن يقبل رفض الله أن يرحم أقاربه وأهله من الكافرين

=

Gotthelf Bergsträßer and Otto Pretzl, The History of the Qurʾān, ed. and transl. Wolfgang H. Behn, Leiden-Boston, Brill ("Texts and studies on the Qurʾān", 8), 2013, p. 118-126 (corresponding to the second edition of the German, originally published in 1909: I, p. 144-154). For a comparative list of chronological classifications see the Introduction to Le Coran, transl. Sami Aldeeb Abu-Sahlieh, Vevey, L'Aire, 2008, p. 14-17.

(١) David Marshall, God, Muhammad and the Unbelievers, Surrey, Curzon, 1999, p. 98. 13

(٢) ومع ذلك لا نجد أثرًا لهذا الصراع في الآية (٢٦) من سورة نوح -وهي سورة مكية أيضًا- إذ يدعو نوح ربّه ألّا يذر على الأرض من الكافرين ديّارًا.

في مكة[١]. ويكتب عن هذا المعنى قائلًا: «لقد حصلنا على أكثر اللمحات تكشُّفًا من اضطراب محمد، والمتمثلة في صراعه من أجل أن يجعل عالمه الداخلي متسقًا مع مطالب الله»[٢].

لا يختلف تناوُل أنجيليكا نويفرت[٣] لقصة نوح كثيرًا عن طرح مارشال؛ إذ تفهم نويفرت (التي تعتقد -مِثل مارشال- في تصنيف تيودور

(١) في هذا الصدد، يخلُص مارشال إلى أن سورة هود تمثل نقطة تحوّل وُسطَى في تحولات محمد، تقع بين سورة الشعراء (حيث لم يتضح بعدُ الصراع بين الأسرة والإيمان) وسورة الأعراف (حيث تظهر فكرة القرابة على أساس الإيمان). ويقتبس مارشال في حديثه عن ابن نوح الضال قول ريتشارد بيل: «إن رابطة الإسلام تقطع كلّ الروابط». مارشال، (الله، ومحمد وغير المؤمنين)، ص١٠١، نقلًا عن تعليقات بيل، ص٣٥٩. كما يشير مارشال هنا أيضًا إلى كتاب Toshihiko Izutsu، المفاهيم الاثني-دينية في القرآن، مونتريال، مطبعة جامعة ماكجيل (دراسات ماكجيل الإسلامية، ١)، ١٩٦٦، ص٥٨. وبحسب مارشال، لم يقبل محمد هذا المبدأ بشكل نهائي إلا في المدينة. عندها فقط، قبل أن يكون غير المؤمنين منبوذين من جانب الله ومُبعَدين عن رحمته (حتى يعتنقوا الإسلام).

(٢) مارشال، (الله، ومحمد، وغير المؤمنين)، ص١٠١. تحقيقًا لهذه الغاية، يقتبس مارشال أيضًا (ص٩٨-٩٩) عن غوردون نيوبي (الذي سنتناول دراسته لقصة الابن الضال لنوح لاحقًا) قوله: «بقدر ما يمكننا فهم قصة نوح يمكننا بشكل موازٍ أن نفهم سيرة محمد، وأزعم أننا بإمكاننا ذلك، فإنّ شفقة نوح تخبرنا عن اهتمام محمد بأولئك الذين لن يؤمنوا برسالته». غوردون نيوبي، (الابن الغارق: المدراش وصناعة المدراش في القرآن والتفسير)، دراسات في التقاليد الإسلامية واليهودية: أوراق بحثية مقدمة لمعهد الدراسات اليهودية الإسلامية، تحرير: وليام برينر وستيفن ريك، أتلانتا، مطبعة الباحثين، " Brown Judaic studies، 111، (178، 1986، p. 29.

(٣) أنجيليكا نويفرت (١٩٤٣-) من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيين المعاصرين في الدراسات القرآنية والإسلامية.

أستاذ الدراسات السامية والعربية في جامعة برلين الحرّة، درست الدراسات السامية والعربية والفيلولوجي في جامعات: برلين وميونيخ وطهران. عملت كأستاذ ومحاضر في عدد من الجامعات، مثل: برلين وميونيخ وبامبرغ، كما عملت كأستاذة زائرة في بعض الجامعات، مثل: جامعة عمان بالأردن، وجامعة عين شمس بالقاهرة.

=

نولدكه[1] الزمني لتلك الآيات) تلك القصة بوصفها تعكس حالة المؤمنين في أواخر الفترة المكيّة، وتقصد بذلك أن كثيرًا منهم اضطروا إلى قطع العلاقات مع أفراد أُسَرهم غير المؤمنين:

"Sie spiegelt aber eher die realen Konflikte zwischen Gläubigen und Ungläubigen ،die zur Zeit der Verkündigung der Sure auch innerfamiliäääääre Strukturen erschüttern"[2].

=

ولها عدد من الكتابات والدراسات المهمة في مجال القرآن ودراساته، من أهمها:

- القرآن كنصّ من العصور القديمة المتأخرة، مقاربة أوروبية، ٢٠١٠.
- دراسات حول تركيب السور المكية، ١٩٨١.
- النصّ المقدس، الشعر، وصناعة المجتمع: قراءة القرآن كنصّ أدبي، ٢٠١٤. (قسم الترجمات).

(١) تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عددًا من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيريانية، وآرامية الكتاب المقدّس، ثم درس -وهو طالب في الجامعة- الفارسية والتركية، وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول «تاريخ القرآن»، وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها، وقد صدر الجزء الأول من «تاريخ القرآن» في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه برجستراسر ثم برتزل. كذلك درس نولدكه «المشنا» وتفاسير الكتاب المقدّس أثناء عمله معيدًا في جامعة جيتنجن، له إلى جانب كتابه الشهير «تاريخ القرآن» كتبٌ حول اللغات السامية، منها: «في نحو العربية الفصحى»، و«أبحاث عن علم اللغات السامية»، عمل أستاذًا في جامعة كيل ثم جامعة اشتراسبورج. كتابه «تاريخ القرآن» مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨. (قسم الترجمات).

(٢) Angelika Neuwirth, Der Koran als Text der Spätantike: Ein europäischer Zugang, Berlin, Verlag der Weltreligionen, 2010, p. 630.

=

في الواقع، يهتم القرآن بشكلٍ عامّ بتوظيف قصص الأنبياء من أجل تعليم المؤمنين أنهم يجب عليهم التخلي عن أفراد عائلاتهم من غير المؤمنين (وهو ما سوف أعالجه بشيء من التفصيل أدناه). ومن المفترض أن يعكس هذا التوظيف اهتمامًا حقيقيًّا لمصنّف القرآن في سياقه التاريخي[١]. من ناحيتي لا أميل إلى تحديد موقع تلك السورة على الخط الكرنولوجي المرتبط بأدبيات السيرة التقليدية لسببين؛ **أولًا**: يمكن أن تكون أهمية قطع العلاقات مع أفراد الأسرة غير المؤمنين بمنزلة رسالة ملائمة لأيّ حقبة؛ مكيّة كانت أو مدنية، وليس فقط في المرحلة (المكيّة الثالثة)[٢].

=

تشير نويفرت في هذا الصدد إلى الآية الثامنة من سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾، ويمكن للمرء أن يقارنها بالآيات (١٤، ١٥) من سورة لقمان.

(١) في ورقةٍ لها نُشرت مؤخرًا، تجادل فيفيان كوميرو دي بريمار بأن شخصية نوح في القرآن تُقدَّم عمومًا بأسلوب يعكس اهتمامات محمد الخاصة:

"Muḥammad s'adresse aux siens par la bouche de Noé en reprenant quelques éléments des récits d'origine biblique dans une configuration originale propre à sa predication". Viviane Comerro de Prémare, "Un Noé coranisé", Revue d'Histoire des Religions, 232 (2015), p. 624. On Noah in Islamic tradition generally see also Giovanni Canova, "The Prophet Noah in Islamic Tradition", in Essays in Honour of Alexander Fodor in His Sixtieth Birthday, eds Kinga Dévényi and Tamás Iványi, Budapest, Eötvös Loránd University Chair for Arabic Studies ("The Arabist. Budapest Studies in Arabic", 23), 2001, p. 1-20.

(٢) يجدر بالمرء أيضًا أن يلاحظ التناقض بين قصة نوح كما وردت في سورتي هود والمؤمنون (حيث يبدو اهتمام نوح بغير المؤمنين، سواء صراحةً [هود: ٤٥]، أو بشكل ضمني [المؤمنون: ٢٧]، وكما وردت في

=

تحقيقًا لتلك الغاية تجدر الإشارة إلى أن ريتشارد بيل[١] يتصوّر أن تكون واقعة الابن الكافر لنوح مدنية، كونه يعتقد أنها تعالج مخاوف المهاجرين في المدينة، الذين تركوا وراءهم غير المؤمنين من أفراد أُسَرهم في مكة[٢]. **ثانيًا**: وهو الأهم، أنني أتشكّك في مقاربة قصص القرآن في ضوء ما ورد في الروايات التقليدية للسيرة (التي دونت بالطبع بعد القرآن) بمثل هذه الثقة. ففي رأيي انبثق جزء كبير -وليس الكلّ- من السيرة من النقاشات أو التفسيرات التي تناولَت المادة القرآنية (لهذا السبب تحديدًا يبدو أن ما ورد في السيرة غالبًا ما يتفق مع هذه المادة القرآنية بشكل جيد). وهذا يعني أن قراءة القرآن من خلال السيرة لن يؤدي إلّا إلى (حلقة مفرغة) كما يقول ريجيس بلاشير[٣][٤].

=

سورة نوح (حيث يدعو ربه في الآية ٢٦ أن يمحق جميع الكافرين) على الرغم من أن السور الثلاث يُفترَض أنها سور مكية.

(١) ريتشارد بيل (١٨٧٦-١٩٥٢)، مستشرق بريطاني، أستاذ اللغة العربية بجامعة أدنبرة، له اهتمام كبير بالقرآن؛ حيث كتب حول أسلوب القرآن ومتشابه القرآن، كما أنه اهتم لعلاقة القرآن وعلاقة النبي بالمسيحية، كما أنه ترجم القرآن في ترجمة وإعادة ترتيب (١٩٣٧-١٩٤١). (قسم الترجمات).

(٢) «لا شك أنّ ثمّة مشاعر ندم على الأقارب كانت في أذهان المهاجرين، وربما في رُوع النبي نفسه، ولكن لا يمكن إذكاء مثل هذه المشاعر». Bell, Commentary, I, p. 359.

(٣) “On est dans un cercle vicieux. On part du Coran pour établir une ‘vie’ du Prophète et on utilise à son tour celle-ci pour définir la chronologie du Coran”. Régis Blachère, Introduction au Coran, Paris, Maisonneuve, 1959, p. 246.

(٤) ريجيس بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣)، هو واحد من أبرز وأشهر وجوه الاستشراق الفرنسي، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد في مونروج ضمن ضواحي باريس. تعلّم العربية في الدار البيضاء =

وقد قدّمتُ حجاجي في هذا الصدد بالتفصيل في موضع آخر[١].

مع ذلك، وعلى الرغم من أنني أختلف مع مارشال (ونويفرت) بخصوص العلاقة بين ابن نوح الكافر والسيرة، إلا أنني أتّفق معه على أهمية أن تُفهم القصة في ضوء تعاليم القرآن بخصوص الموقف الصحيح للمؤمنين تجاه غير المؤمنين، واهتمام القرآن الخاصّ بموقف المؤمنين تجاه غير المؤمنين من أفراد أُسَرهم. يعلّمنا القرآن في هذا الصدد أن المؤمنين يجب عليهم ألّا يستغفروا أو يلتمسوا الشفاعة لغير المؤمنين، بل لا ينبغي أن يشعروا بأيّ تعاطف تجاههم على الإطلاق. وبما أن الله نفسه قد نبذ غير المؤمنين، فإنّ أيّ نوع من التعاطف معهم سيكون بمثابة عدم رضا بقضائه، إن لم يكن تجديفًا في حقّه.

=

بالمغرب، وتخرّج في كلية الآداب في الجزائر عام ١٩٢٢م، وعيّن أستاذًا في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط، وانتقل إلى باريس محاضرًا في السوربون عام ١٩٣٨م، ثم عُيّن مديرًا لمدرسة الدراسات العليا العلمية عام ١٩٤٢م، وأشرف على مجلة المعرفة الباريسية بالعربية والفرنسية. ألّف بلاشير العديد من الكتب التي تُرجِم بعضها إلى العربية، واعتمد بعضها للتدريس في بعض المعاهد الثانوية الفرنسية.

من أهم مؤلفاته: - ترجمة معاني القرآن الكريم، في ثلاثة أجزاء، أولها مقدمة القرآن الكريم. ثم نشر الترجمة وحدَها في عام ١٩٥٧م، والتي أعيد طباعتها عام ١٩٦٦م. (قسم الترجمات).

(١) Gabriel Said Reynolds, "Le problème de la chronologie du Coran", Arabica, 58 (2011), p. 477-502.

يغفر ربّ القرآن لغير المؤمنين الذين يتوبون ويؤمنون، لكنه لا يحب الكافرين أيضًا [البقرة: ٢٧٦]. يقاتلهم [التوبة: ٣٠]. يسخر منهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون [البقرة: ١٥]. يخبرهم أن يموتوا بغيظهم [آل عمران: ١١٩]. وأنه نسيَهم [التوبة: ٦٧]. يتربص بهم [هود: ١٢١-١٢٣]، [الفجر: ١٤]. ويمكر بهم [آل عمران: ٤٥]، [الأعراف: ٩٩]، [الأنفال: ٣٠]، [هود: ٢١]. إنه يصبّ عليهم عذابه [الفجر: ٢٣][(١)]. وهو شديد وقاسٍ عليهم [هود: ٥٨]، [إبراهيم: ١٧]، [لقمان: ٢٤]، [فصلت: ٥٠]. لن يغفر لهم حتى لو طلب النبي لهم المغفرة [المنافقون: ٦]. وحتى لو طلب من الله أن يغفر لهم (٧٠) مرة [التوبة: ٨٠][(٢)].

بإمكان المرء، في ضوء الآيات القرآنية التي تعبّر عن إدانة الله للكافرين، أن يفهم بشكل أفضل قصّة الابن الكافر. في الآيات السابقة على سَرْد قصة ابن نوح مباشرة يحذِّر الله نوحًا من التشفُّع لغير المؤمنين: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]. انظر أيضًا [هود: ٧٦]، حيث يتم توبيخ إبراهيم على نحوٍ

(١) هكذا وردت في النصّ الإنجليزي. والصواب أنها الآية ١٣: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾. (المترجِم).

(٢) كما يلخص مارشال المسألة: «على الرغم من استعداد الله أن يغفر للكافرين إذا تابوا، إلا أنهم لا قيمة لهم عنده طالما أنهم غير مؤمنين». مارشال، الله ومحمد وغير المؤمنين، ص١٨٤.

مماثل عندما جاء يجادل في قوم لوط الآثمين[١]. ومع ذلك يتوسل نوح من أجل ابنه، ومن ثمّ يوبّخه الله [هود: ٤٦][٢]. اللغة التي يَنتهِر الله بها نوحًا تستوجب النظر. يخبر الله نوحًا أنَّ هذا الابن ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وهي ملاحظة لم تُثِر جدلًا يُذكر بين الباحثين[٣]، ولكن من المفترض أنها تعني ببساطة أن الكافرين لا يجب اعتبارهم ضمن أفراد الأسرة.

---

(١) راجع أيضًا: آية (٣٢) من سورة العنكبوت، حيث يجادل إبراهيم من أجل لوط وحده، إلا أنه يُلام أيضًا بسبب تدخّله. ويمكننا المقارنة مع الآيات (٢٧، ٢٨) من سورة المؤمنون، إذ يحذِّر الله نوحًا من مناشدته في شأن مَن أدانهم. ومع ذلك، يرد تضرع نوح من أجل ابنه في سورة هود فقط.

(٢) يمكننا المقارنة هنا بالآية الأولى من الإصحاح الخامس عشر من سِفر آرميا: «ثم قال الرب لي وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب، اطرحهم من أمامي فيخرجوا». ويعلق مارشال بقوله: «من المؤكد أن توبيخ الله لنوح يوضح أن غرائز نوح الأبوية لم يُتحكّم فيها بشكل كافٍ بعدُ». (مارشال، الله ومحمد وغير المؤمنين، ص١٠٠).

(٣) أثارت هذه الملاحظة بعض التفاسير الإسلامية (متأثرة أيضًا بالآية العاشرة من سورة التحريم، والتي تشير إلى خيانة زوجة نوح وزوجة لوط) التي استنتجَت أن الابن الكافر لم يكن حقًّا ابنًا لنوح، وأنه من نسل رجل آخر كان على علاقة مع زوجته. وقد أبدلت بعض التفاسير العبارة الواردة في الآية (٤٢) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ إلى: (ونادى نوح ابنها)؛ للدلالة على أن هذا الابن هو ابنٌ لزوجة نوح من رجل آخر. انظر -على سبيل المثال- النقاش الذي أورده فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، منشورات محمد بيضون، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١/ ٢٠٠٠، المجلد السابع عشر، ص١٨٥، في تفسيره للآيات ٤٢-٤٣. انظر أيضًا: الثعالبي، الكشف والبيان، تحقيق: أبو محمد ابن عاشور، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢/ ٢٠٠٢، الجزء الخامس، ص١٧٢-١٧٣.

على أيّة حال، فإن التوبيخ الإلهي لنوح في الآية (٤٦) يهدف إلى تحذير قرّاء القرآن من خطر الصلات الطبيعية الكامنة في العلاقات الأسرية. في الواقع يُعرِب القرآن بشكل عامّ عن قلقه من احتمالية أن تصبح الولاءات العائلية عائقًا يمنع الناس من الإيمان بتعاليمه. فبالنسبة إلى القرآن، يُعدّ توريث الكفر أو الوثنية من أحد الآباء إلى ابنه مشكلة شائعة؛ تحدّث القرآن عن خصوم إبراهيم، وهود، وصالح، وشعيب، ولقمان، وحتى خصوم نبي القرآن نفسه، ينسبون عدم إيمانهم إلى ما كان عليه آباؤهم[(١)]. في الواقع يمكن للمرء أن يحاجج بأن التعليل الأساس في القرآن لعدم الإيمان هو الارتباط الشديد بأفراد الأسرة غير المؤمنين.

يمكن لقصة إبراهيم بشكلٍ خاصّ أن تبرز ما نرمي إليه؛ في سورة الأنبياء يسأل إبراهيمُ أباه وقومه عن سبب عبادتهم الأوثان، فيصرون على أنهم يفعلون ذلك فقط لأن آباءهم عبدوها أولًا:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنبياء: ٥٢، ٥٣]. وفي موضع آخر من القرآن [الأنعام: ٧٤] يقرِّع إبراهيم -مباشرةً- أباه الوثني (الذي يدعوه القرآن آزر خلافًا لسِفر التكوين الذي يسميه تارح): ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾[الأنعام: ٧٤].

---

(١) انظر سور: [البقرة: ١٧٠، المائدة: ١٠٤، الأعراف: ٢٨، ٧٠، يونس: ٧٨، هود: ٥٣، ٦٢، ٨٧، إبراهيم: ١٠، الأنبياء: ٥٣، الشعراء: ٧٤، لقمان: ٢١، سبأ: ٤٣، الزخرف: ٢٢، ٢٣، ٢٤، الأحقاف: ٢٢].

في مواضع أخرى يذكر القرآن وَعْد إبراهيم بأن يستغفر لأبيه غير المؤمن (وهو ما يبدو موازيًا لنداء نوح ربه من أجل ابنه الكافر في الآية (٤٥) من سورة هود): ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨]. انظر أيضًا: [الآية (٤١) من سورة إبراهيم، والآية (٤) من سورة الممتحنة]. وفي سورة الشعراء، يورد القرآن دعاء إبراهيم: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الشعراء: ٨٦]. ومع ذلك، يصرّ القرآن في سورة التوبة على أنّ حالة إبراهيم كانت استثنائية، وأنه لا ينبغي للنبيّ ولا للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى[(١)]:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤][(٢)].

(١) يجادل مارشال أن بإمكاننا رؤية التطوّر الكرونولوجي في هذه الآيات؛ فبينما يَعِدُ إبراهيم أباه في الآيات المكية أن يستغفر له (أو هو يستغفر له بالفعل كما في الآية (٨٦) من سورة الشعراء)، يعود القرآن ليعلن في الآيات المدنية المتأخرة [الآية (١١٤) من سورة التوبة] أن ذلك كان أمرًا استثنائيًّا، وأنه لا يجوز للمؤمنين أن يستغفروا لأعدائهم.

(٢) تجد لهذه الفكرة الرئيسة للمفاصلة مع أفراد الأسرة غير المؤمنين أوجه تشابه مثيرة للاهتمام في العهد الجديد، لا سيما الإصحاح العاشر من إنجيل متى: ٣٤-٣٩ والإصحاح الثاني عشر من إنجيل لوقا: ٤٩-٥٣.

يمكن أن نقارن المواجهة المذكورة في القرآن بين إبراهيم ووالده بمواجهة موسى مع فرعون (الذي يظهر في القرآن بوصفه والد موسى بالتبنّي). في سورة الشعراء، يورد القرآن استذكار فرعون للمعروف الذي صنعه لموسى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾[الشعراء: ١٨]، ومع ذلك لم يتأثّر موسى بهذا الصنيع، ويرفض أن يعترف بفرعون إلهًا: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ويطالب فرعونَ أن يؤمن بالله: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[الشعراء: ٢٤].

تختلف حالتا إبراهيم وموسى بوضوح عن حالة نوح، كونهما تنطويان على أبٍ غير مؤمن يواجهه ابنٌ مؤمن، في حين أنّ حالة نوح تصوِّر أبًا مؤمنًا وابنًا غير مؤمن. ومع ذلك يناقش القرآن في سورة الأحقاف حالة الوالدَيْن المؤمنَيْن اللذَيْن يستحثّان ابنًا غير مؤمن[(١)]. بعد أن أثنى القرآن أولًا على الابن المطيع لوالديه ولله، يواصل القرآن:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾[الأحقاف: ١٧، ١٨][(٢)].

(١) أشكر نيكولاي سيناي على الإحالة لتلك الآيات.

(٢) يمكن للمرء مقارنة هذه الآيات بالآية الثامنة من سورة العنكبوت، والتي تصرّ على أن المؤمنين لا تجب عليهم طاعة آبائهم غير المؤمنين.

وهكذا تبدو شخصية الابن الكافر لنوح مثالًا على هذا الابن العاق. في الواقع من الممكن أن يُقصد بهذا الابن أن يكون مثالًا على تلك الحالة الافتراضية التي نوقشت في سورة الأحقاف[١]. ومن المؤكّد أنّ القرآن يهتم بشكل خاصّ بمشكلة أفراد الأسرة غير المؤمنين. وهكذا يتسنّى للمرء أن يلاحظ إصرار القرآن في مواضع أخرى على أنه ينبغي لأولئك الذين يؤمنون بالله ألّا يحبوا مَن يعادون الله ورسوله، حتى لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، انظر: [المجادلة: ٢٢، ولقمان: ١٤، ١٥، والتغابن: ١٤]. يبدو أن قصة ابن نوح -وخاصةً الطريقة التي يوبِّخ بها الله نوحًا لعاطفته تجاه ابنه- يُقصد بها تعليم هذا الدرس لقرّاء القرآن: تجب البراءة من جميع الكافرين، حتى لو كانوا أبناء المرء[٢].

بإمكاننا أيضًا مقارنة الآيات التي تتحدّث عن الابن الكافر لنوح مع تلك الآيات التي يُتّهم فيها نوح بالجنون أو السفه من قِبَل خصومه [المؤمنون: ٢٥،

(١) ومع ذلك قد لا يكون ذلك ممكنًا بحسب الطرح الكرونولوجي الصارم لنولدكه، والذي تسبق فيه سورةُ هود سورةَ الأحقاف (على الرغم من أنّ كليهما يعود إلى المرحلة المكية الثالثة). يمكن للمرء أن يلاحظ أيضًا أن سورتي المجادلة والتغابن المذكورتين أعلاه هما سُوَر مدنية أيضًا بحسب التقليد.

(٢) في الآية ١٧٧ من سورة البقرة، يتحدّث القرآن عن الواجب (المالي) تجاه الأقارب (ذوي القربى؛ وهو تعبير نجده أيضًا في الآية السابعة من سورة الحشر، حيث يبدو أنه يشير إلى أقرباء النبي). ومع ذلك يبدو هذا الواجب المالي -تحت وطأة العديد من الآيات القرآنية الأخرى- مصروفًا إلى أفراد العائلة من المؤمنين فقط.

القمر: ٩]. فكلتا الحالتين لهما علاقة محدّدة بنبيّ القرآن؛ بحيث يبدو أن القرآن يترجِم قلقًا يوميًّا لمحمد بشأن أفراد عائلته غير المؤمنين من خلال حياة نوح، كما يترجِم كذلك الاتهامات الموجَّهة لمحمد بالجنون [الأعراف: ١٨٤، الصافات: ٣٦، الدخان: ١٣[(١)]، الطور: ٢٩، القلم: ٥١] إلى اتهامات موجهة ضد نوح. يصوغ القرآن شخصية نوح بطريقة تجعله مفيدًا لنبيِّه الخاصّ[(٢)]. وهذا ما يفسّر -على سبيل المثال- لماذا يُسهِب القرآن كثيرًا في ذكر المواجهة بين نوح وقومه غير المؤمنين، في حين يورد القليل من التفاصيل حول قصة الطوفان[(٣)].

بعد أن مَوضَعْنا قصة الابن الكافر لنوح ضمن سياقاتها الأوسع في القرآن، بقي لنا معالجة السؤال الآتي: هل ثمّة علاقة بين تلك القصة وبين التقاليد ما قبل القرآنية المتعلقة بنوح؟ من الممكن بالطبع أن يكون القرآن قد اختصّ بهذه الرواية وحده. يتبنَّى مارشال هذا الرأي، مشيرًا إلى مقال غوردون نيوبي (الذي سأناقشه لاحقًا). يرى مارشال أن غياب قصة الابن الكافر لنوح في الأدبيات

(١) هكذا وردت في النصّ. والصواب أنها الآية (١٤): ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾. (المترجِم).

(٢) On this point see Segovia, The Quranic Noah, p. 11 ff.

(٣) كما يلاحظ Comerro de Prémare، فإن مصطلح الطوفان يأتي ذكره مرة واحدة فقط في الآيات التي تسرد قصة نوح في القرآن [سورة العنكبوت: ١٤] Comerro de Prémare, "Un Noé coranisé", p. 627.

اليهودية والمسيحية السابقة يعني أن قضية أفراد العائلة غير المؤمنين في التناول القرآني لا بد وأن تكون ذات أهمية كبيرة بما يكفي لإثارة مثل هذه القصة[١].

في الحقيقة من الصائب القول إنّ قصة الابن الذي رفض ركوب الفُلك غير موجودة في سِفر التكوين[٢]، ولا في أيّ عمل يهودي أو مسيحي لاحق، إلا أنّ

---

(١) يجادل مارشال أن كلًّا من رواية استغفار إبراهيم لأبيه ورواية الابن الكافر لنوح، يقتصران حصرًا على القرآن. ويعلق قائلًا: «يتطرق شباير إلى نقطة مثيرة للاهتمام، وهي أنه لا يوجد أيّ أثر في الأدبيات اليهودية حول مسألة شفاعة إبراهيم لأبيه (شباير: ١٤٥)، كما يجادل نيوبي بشأن عرض القرآن لإشفاق نوح على ابنه الكافر. وبالتالي فإنّ دعاء إبراهيم لأبيه لا يرِد في القرآن لمجرد أنه انتمى إلى تقاليد سابقة بشأن إبراهيم، بل من المحتمل أن يكون هذا في الواقع مثالًا على إعادة صياغة القرآن لأدبيات قديمة لتناسب السياق الخاصّ بمحمد. وهذا يشير إلى أننا لدينا هنا بشكل خاصّ إمكانية الوصول المباشر إلى قضية تخص حياة محمد و/ أو حياة الأمة بأسرها». مارشال، الله ومحمد وغير المؤمنين، ص١٧١-١٧٢.

For the reference to Heinrich Speyer, see Heinrich Speyer, Die Biblischen Erzählungen im Qoran, Hildesheim, G. Olms, 1961 (reprint of Grono, Verlag Dr. Theodor Marcus, 1931.

(٢) من جهتهم لا يحاول المفسرون المسلمون -كقاعدة عامة- شرح سبب عدم معرفة ابن نوح الكافر لدى اليهود والمسيحيين. وهذا مثير للاهتمام؛ لأن القضايا الأخرى التي يختلف فيها القرآن مع الكتاب المقدس -مثل الإخبار عن اليهود الذين يقولون إن عزيرًا ابن الله [التوبة: ٣٠]، أو التعريض بالمسيحيين الذين يقولون بألوهية مريم [المائدة: ١١٦]- تؤدي إلى دفاع المفسرين عن صحة إخبار القرآن. ومع ذلك أصبحت تلك القضايا خلافية بين المسلمين وغير المسلمين، ولم تصبح قضية ابن نوح مشكلة من هذا القبيل، وبالتالي لم ينخرط المفسرون في أيّ نشاط دفاعي ضد الآخرين. وقد انتبه التونسيّ محمد الطاهر ابن عاشور (المتوفى عام ١٩٧٣)، وهو أحد المفسّرين الجدد، إلى هذا التباين مع سِفر التكوين، ووَصَف ابن نوح الغارق بأنه: «ابن رابع في أبنائه من زوج ثانية لنوح كان اسمها (واعلة) غرقت». يعكس هذا الكلام إدراك ابن عاشور للرواية التوراتية بشأن أبناء نوح؛ لأن الكتاب المقدّس -وليس القرآن- هو الذي ذكر أن =

كهف الكنوز[١] السرياني (القرن الرابع- القرن السادس) ينسب لنوح ابنًا إضافيًّا اسمه (يوناتون)، ولكن هذا الابن ولِد لنوح بعد الطوفان[٢].

ومع ذلك، يجادل عدد من الباحثين الأوائل بأنّ رواية القرآن عن ابن نوح الكافر ترتبط بسِفر التكوين. في كتابه: (ماذا أخذ محمد عن اليهودية؟)، يتعرض إبراهام جيجر[٣] في هذا الصدد للإصحاح التاسع من سفر التكوين، الذي يذكر ارتكاب حام (ابن نوح) فعلًا طائشًا، فيلعن نوحٌ -لاحقًا- كنعانَ (ابن حام).

=

نوحًا حمل معه ثلاثة أبناء على الفلك. وقد أشار ابن عاشور مباشرة إلى التوراة في فقرة ثانية عن ابن نوح بقوله: «قيل كان اسم ابنه (ياما) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين. وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزبًا». ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠/ ٢٠٠٠، الجزء الحادي عشر، ص٢٦٢.

(١) (كهف الكنوز) كتاب من بين عشرات الأسفار والأناجيل والإصحاحات والكتابات الرؤيوية غير القانونية أو المشكوك في صحتها -من قبل ما صار يعرّف وفقًا للديانة الرسمية بالطبع- والتي تم اعتبارها كتابات غنوصية أو هرطوقية غير معترف بها على الصعيد الرسمي، وبالتالي لا تحظى بعناية النصوص الرسمية، ويكاد يقتصر تناولها على المستوى الأكاديمي. (المترجم).

(٢) The Cave of Treasures mentions this son of Noah only in the time of Nimrod (who appears on Genesis 10). La caverne des trésors : les deux recensions syriaques, ed. and transl. Su-Min Ri, Leuven, E. Peeters ("Corpus scriptorum christianorum Orientalium", 486-487; "Scriptores syri", 207-208), 1987, 27, 7 (R.or.). The 13th century Syriac Book of the Bee makes his birth after the flood explicit. See The Book of the Bee, ed. and transl. Ernest Wallis Budge, Oxford, Clarendon, 1886, chap. 20.

(٣) إبراهام جيجر (١٨١٠-١٨٧٤) هو مستشرق ألماني وحبر يهودي، وصاحب أهمية كبيرة في تاريخ الإصلاح اليهودي، حيث يعتبر رائد الإصلاحية اليهودية في العصر الحديث، وتمحورت دراساته حول فقه

=

٢٠ وابتدا نوح يكون فلّاحًا وغرس كَرْمًا.

٢١ وشرب من الخمر فسكر وتعرَّى داخل خبائه.

٢٢ فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا.

٢٣ فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما، ومشيَا إلى الوراء وسترَا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما.

٢٤ فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير.

٢٥ فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته.

٢٦ وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدًا لهم.

٢٧ ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدًا لهم[١].

=

اللغات الكلاسيكية العبرية والسيريانية، وحول العهد القديم، طالما آمن جيجر بالمركزية اليهودية في الأديان الكتابية وبمدى تأثير الكتاب المقدس على المسيحية والإسلام، وربما أشهر كتبه في هذا كتاب: (ماذا أخذ محمد من اليهودية؟). (قسم الترجمات).

(١) Bible translations are from the Revised Standard Version unless otherwise noted.
As Laura Lieber points out, the episode of Noah's drunkenness (including his cursing of Canaan) is a tragic ending to the story of Noah, who otherwise seems to be a heroic character. Noah is the only figure of righteousness in an unrighteous generation, and he successfully saves humanity, and indeed the animals, from the cosmic flood. See Laura Lieber, "Portraits of Righteousness: Noah in Early Christian and Jewish Hymnography", Zeitschrift für Religions- und Geistesgeschichte, 61 (2009), p. 332.

لا يشرح جيجر بالتحديد كيف يمكن لفعلة حام الطائشة أن تستثير رواية القرآن بشأن ابن نوح الكافر[١].

من جانبه يوافق شباير[٢] في دراسته Die biblischen Erzählungen im Qoran، على أنّ الرواية القرآنية تستند في نهاية المطاف إلى قصة حام الواردة في الإصحاح التاسع من سِفر التكوين[٣]، على الرغم من أنه يشير أيضًا إلى عدد من الروايات الأخرى ذات المضمون الشبيه بتلك القصة، بما في ذلك قصة نفتالي في العهد القديم، وهو نصّ يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومن المحتمل أن يكون مكتوبًا باللغة اليونانية[٤]، يحكي قصة حلم نفتالي الذي

(١) Instead he argues simply that this account "wahrscheinlich aus einer Auffassung des üblen Verfahrens seines Sohnes Ham nach der Sündfluth entstand." Abraham Geiger, Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen, Leipzig, M.W. Kaufmann, 1902 (reprint of Bonn, Baaden, 1833), p. 109. Geiger also notes how the Qurʾān, in another passage (Kor 66, 10) accuses Noah's wife of betraying her husband (the Qurʾān mentions her along with Lot's wife). Observing that the rabbis make no allusion to any infidelity of Noah's wife, Geiger wonders if these things are simply "errors and mix-ups" (Irrthümer und Vermischungen). Ibid., p. 109.

(٢) هاينرش شباير (١٨٩٧-١٩٣٥)، مستشرق ألماني، درس في جامعة فرانكفورت مع هورفتس، وحصل على الدكتوراه منها عام ١٩٢١، وهو أستاذ في المدرسة الحاخامية بجامعة برسلاو، واهتماماته الأساسية تتعلق بالقصص الكتابي وعلاقته بالقرآن، أشهر كتاباته في هذا كتابه الذي نشر عام ١٩٣٥ بعد وفاته (القصص الكتابي في القرآن)، وفيه مقارنة تفصيلية للقصص الكتابي مع القرآن، وقد ترجم نبيل فياض بعض فصوله للعربية، في كتاب بعنوان: (قصص أهل الكتاب في القرآن)، وصدر عن دار الرافدين، عام ٢٠١٨. (قسم الترجمات).

(٣) Speyer, Die Biblischen Erzählungen im Qoran, p. 105.

(٤) See Howard Kee, "Testaments of the Twelve Patriarchs", in The Old Testament Pseudepigrapha, ed. James Charlesworth, Garden City, Doubleday, 1983, I, p. 765-778.

يهرب فيه يوسف من سفينة غارقة على متن قارب صغير[١]، كما يُحيل شباير أيضًا إلى يوسيفوس في كتابه (آثار اليهود: ١، ٢، ٤) الذي يأتي فيه على ذكر النمرود حفيد حام، الذي يبني برج بابل من أجل التحصّن ضد طوفان جديد[٢]. من المفترض أنّ المقصود هنا هو أن كِلَا الشخصيتين يُنظر إليهما بوصفهما مقاومَين للطوفان[٣]، كما يشير شباير أيضًا إلى بعض التقاليد الحاخامية التي تذكر غرق قابيل في مياه الطوفان. وأخيرًا، يختتم بقوله: «هذه المواد وغيرها من المواد الأسطورية المماثلة يمكن بالفعل أن تختلج خيال محمد مع رواية الكتاب المقدّس. على أيّة حال، لا يمكننا أن نحصل على سردية محكمة موازية لتقرير القرآن»[٤].

(١) Testament of Naphtali, 6, 1-10 in Charlesworth (ed.), The Old Testament Pseudepigrapha, II, p. 813.

(٢) يتطرق شباير أيضًا إلى التقاليد التي تطوّر من فكرة خطيئة حام؛ ففي التلمود البابلي (Sanhedrin 108B) يُعاقَب حام بسبب علاقاته الجنسية أثناء وجوده على متن الفُلك؛ وفي كتابه (مدينة الله: ١٦، ٢) يصوّر أوغسطين حامًا بوصفه النموذج الأولي للمهرطق.

(٣) Genesis Rabbah, 22, 12; transl. Benjamin Freedman, London, Soncino, 1983, p. 191; cf. 32, 5; transl. Freedman, p. 252. See also Testament of Naphtali, 6, 1-10. The reference to the Flood is missing in the text translated in Charlesworth (ed.), The Old Testament Pseudepigrapha, p. 813; it is preserved by the source used by Speyer: Emil Kautzsch, Die Apokryphen und Pseudepigraphen des Alten Testaments, Tübingen-Freiburg, Mohr, 1900, II, p. 504.

(٤) Speyer, Die Biblischen Erzählungen im Qoran, p. 106.

مؤخرًا أخذ غوردون نيوبى[١] على عاتقه مهمّة البحث في قصة ابن نوح في القرآن؛ في مقاله المنشور عام ١٩٨٦، يوافق نيوبي على أن جريمة حام المذكورة في الإصحاح التاسع من سفر التكوين[٢] هي مصدر قصة الابن الكافر لنوح في سورة هود، وعادةً ما يعرِّف الباحثون جريمة حام برؤيته نوحًا عاريًا (كما توحي بذلك القراءة الحرفية للكتاب المقدّس) أو بالاعتداء الجنسي أو الإخصاء[٣]. ومع ذلك فإنّ هذا لا يفسّر لماذا يلعن نوحٌ (كنعانَ) هنا، وليس (حامًا).

ومن أجل تعليل الأمر، تقترح بعض المصادر اليهودية (يحيل نيوبي إلى نصّ Pirqē de-Rabbī Elīʿezer، على الرغم من مجيء هذا النصّ بعد النصّ

(١) غوردون نيوبي، أستاذ الدراسات الإسلامية واليهودية والدراسات المقارنة في قسم دراسات الشرق الأوسط وجنوب آسيا بجامعة إيموري، أمريكي حاصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة براندیس في الدراسات المتوسطية، تتركّز اهتماماته في تاريخ اليهود العرب ونشأة الإسلام، من كتبه: تاريخ اليهود العرب، ١٩٨٨. موسوعة موجزة في الإسلام ٢٠٠٢. (قسم الترجمات).

(٢) Newby, "The Drowned Son". On Noah in the Qurʾān see also Erica Martin, "The Literary Presentation of Noah in the Qur'ān", in Noah and His Book(s), ed. Michael Edward Stone, Aryeh Amilhay and Vered Hillel, Leiden-Atlanta, Brill-Society of Biblical Literature ("Early Judaism and its literature", 28), 2010, p. 253-275. Martin, however, does not seek to explain the presence of Noah's lost son in the Qurʾān.

(٣) يشير كلٌّ من Bergsma and Hahn في ("Noah's Nakedness")، إلى أن تعبير «الكشف عن العورة» (راجع الإصحاح التاسع من سفر التكوين: ٢١-٢٢) هو تعبير يُستخدم مرارًا وتكرارًا للتعبير عن حالة الجماع الجنسي في سفر اللاويين ١٨.

القرآني)، وبعض آباء الكنيسة (يحيل نيوبي إلى أوريجانوس)[١]، أن كنعان – وليس حامًا– هو الذي اقترف تلك الفعلة بحقّ نوح.

يشير نيوبي إلى أنه يمكن قراءة قصة تعري نوح في سفر اليوبيل (٢ ق.م)، وهو يفترض ضمنًا أن كنعان هو ابن نوح في الواقع: «فلما استيقظ نوح من سُكره، علم ما فعله ابنه الأصغر، فلعن ابنه قائلًا: ملعون كنعان ليصير عبدًا مستعبَدًا لإخوته» (اليوبيل ٧، ١٠–١١)[٢]. وهكذا يفترض نيوبي –على الرغم من أنه لا يصرح بذلك مباشرة– أن آيات سورة هود بشأن ابن نوح الملعون تعكس تأثير سفر اليوبيل[٣].

---

(١) See Origen, Homilies on Genesis, Homily 16, Engl. translation (Fathers of the Church), p. 215.

(٢) Transl. Wintermute, The Old Testament Pseudepigrapha, 2, 69. For the Ethiopic see The Book of Jubilees: A Critical Text, ed. James C. Vanderkam, Leuven, E. Peeters ("Corpus scriptorum christianorum Orientalium", 510; "Scriptores aethiopici", 87), 1989, p. 44.

(٣) في موضع آخر يربط نيوبي هذه الرواية بتجربة محمد الخاصّة: «يُقدَّم نوح بوصفه ربّ الأسرة الرؤوم الودود، وهو يشعر بالأسى الشديد لأن (ابنه) قد لا يستجيب لرسالته ويضلّ... نرى هنا نوحًا الذي يمثل العاطفة والشفقة، نوحًا الذي يرغب في مجادلة الله من أجل خلاص فرد واحد. باختصار، يقدِّم لنا القرآن صورة لنوح مغايرة لتلك الصورة التي قدّمها الحاخاميون. وبإمكاننا أن نفهم قصة نوح كرواية موازية لحياة محمد، وأستطيع أن أزعم أننا نستطيع ذلك؛ فإن شفقة نوح تنبئنا بقلقِ محمد حيال أولئك الذين لن يستجيبوا لرسالته». Newby, "The Drowned Son", p. 29. ويمكننا أن نضيف أيضًا أن معظم المفسرين يتفقون على اسم الابن الضال لنوح وهو كنعان، انظر:

Muqātil b. Sulaymān, Tafsīr, ed. ʿAbd Allāh Muḥammad al-Šiḥāta, Beirut, Dār al-turāṯ al-ʿarabī, 2002 (reprint of Cairo, Muʾassasat al-ḥalabī, n.d.), II, p. 283, ad =

تتابع أنجليكا نويفرت (شباير) على قوله بوجود صلة محتملة بين قصة ابن نوح الكافر في القرآن وواقعة نوح وحام الواردة في الإصحاح التاسع من سفر التكوين[١]، على الرغم من أن اهتمامها الرئيس (كما ذكرنا سابقًا) هو الإشارة إلى العلاقة بين هذه القصة وأوضاع الجماعة المسلمة الناشئة في الجزيرة العربية عندما تم إعلانها في المدينة[٢].

أخيرًا، يقترح كارلوس سيغوفيا[٣] في مسألة البحث عن التماثلات التوراتية مع الرواية القرآنية بشأن ابن نوح الضال، أننا لا نحتاج إلى البحث عن نوح فقط

=

Kor 11, 42; al- Zamaḫsharī, al-Kaššāf ʿan ḥaqāʾiq ġawāmiḍ al-tanzīl, ed. Muṣṭafā Ḥusayn Aḥmad, Beirut, Dār al-kitāb al-ʿarabī, 1987, I, p. 396 ad Kor 11, 42-43; Ibrāhīm al-Biqāʿī, Naẓm al-durar fī tanāsub al-āyāt wa-l-suwar, ed. ʿAbd al-Razzāq Ġālib al-Mahdī, Beirut, Dār al-kutub al- ʿilmiyya, 1432/2011, III, p. 532. According to a secondary opinion the lost son was named Yām. Newby wonders if this name is connected to the Northwest Semitic yam(m) ("sea"), a name used in some traditions for a water god who "represents the forces of evil against the good sky deity Baal" (Newby, "The Drowned Son", p. 24). In fact, Yām is certainly a corruption of the Biblical name Ham, something which seems to confirm that the exegetes came up with names for Noah's lost son in the Qurʾān in light of the two characters who are presented as unfaithful, or cursed, in the Noah story in the Bible.

(١) See Neuwirth, Der Koran als Text der Spätantike, p. 629-631.

(٢) Ibid., p. 630.

(٣) كارلوس ألفونس سيغوفيا (١٩٧٠-)، محاضر الدراسات الدينية بجامعة سانت لويس، يهتم بالدراسات الدينية والفلسفية وما بعد الاستعمار، له عدد من الكتب، منها: نوح القرآن وصنع النبي الإسلامي، دراسة في التناص وصنع الهوية الدينية في العصور القديمة المتأخرة، ٢٠١٥. يسوع القرآن: تفسير جديد، ٢٠١٨. (قسم الترجمات).

في الكتاب المقدّس، بل يجب أن نتصوّر أن تكون هذه القصة تمظهرًا جديدًا لجدال إبراهيم الذي رأيناه في شأن سدوم في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين، أو لنُواحِ داود على موت ابنه أبشالوم في الإصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الثاني[(١)].

قبل أن أسوق رأيي الخاصّ، ربما تجدر الإشارة إلى أن تبايُن القرآن عن الكتاب المقدّس يكاد يكون نادرًا، ولا يتضمن الاقتباس القرآني للشخصيات التوراتية تغييرات جذرية: في القرآن يظهر هامان [القصص: ٦، ٨، ٣٨، العنكبوت: ٣٩، غافر: ٢٤، ٣٦] في مصر كأحد وزراء فرعون وليس في بلاد فارس؛ وتظهر مريم كأخت لهارون [سورة مريم: ٢٨] وابنة عمران [آل عمران، ٣٣ وما يليها] تمامًا مثل مريم التوراتية في العهد القديم (see Exo 6, 20; 15, 20; 1 Chr 5, 29). وفي القرآن تجمع زوجة بوتيفار صديقاتها معًا ليشاهِدْن حُسْنَ يوسف [يوسف: ٣٠-٣٢]، وهي الواقعة التي لا نجدها في الكتاب

(١) سيغوفيا، نوح القرآني، ص٨٧. ثمّة محاولة أخرى، أقل إقناعًا، لتفسير آيات ابن نوح الكافر في القرآن، وهي التي قدمها براين براون في: ابن نوح الآخر؛ تجسير الفجوة بين الكتاب المقدّس والقرآن، نيويورك، ٢٠٠٧. يجادل براون بأنّ القرآن يحافظ على تقليد قديم -وهو تقليد غير مدون في الكتاب المقدّس- بموجبه كان لنوح أربعة أبناء: حام، ويافث، وسام، وكنعان. وقد مات أصغرهم، كنعان، أثناء الطوفان، وقرر حام تسمية ابنه على اسم أخيه الميت (ومن ثمّ يظهر حفيد نوح باسم كنعان في سفر التكوين). يقول: «في الكتاب المقدّس، سمّى حام -ابن نوح الآخر- ابنه كنعان، على اسم أخيه الهالك بلا شك، وبالتالي فإن الاسم مألوف تمامًا لدى اليهود والمسيحيين» (ص٥١).

المقدّس. والآن يمكن تفسير بعض هذه التباينات عن طريق إدراك الطريقة التي طوّر بها اليهود والمسيحيون نصوص الكتاب المقدّس في الأدبيات والتقاليد اللاحقة[١]. ومع ذلك فإن القرآن لم يكن أبدًا -في رأيي- متلقيًا سلبيًّا للتقاليد السابقة، سواء كان مصدرها الكتاب المقدّس أو المدراش أو أيّ نصٍّ آخر؛ ينتقي القرآن المواد النصيّة ويشكلها بناءً على اهتماماته اللاهوتية والجدلية، وعند تحليل العلاقة بين القرآن والكتاب المقدّس من المهم أن ندرك تلك الاهتمامات.

وصولًا إلى تلك الغاية، من المهم أن نشير إلى أن شخصية نوح في القرآن لها علاقة خاصّة مع شخصية لوط. وكما أوضحنا آنفًا، فإن القرآن يربط صراحةً في سورة التحريم بين زوجة نوح وزوجة لوط:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠][٢].

(١) Adam Silverstein has shown this to be the case for Haman: Adam Silverstein, "Haman's Transition from the Jahiliyya to Islam", Jerusalem Studies in Arabic and Islam, 34 (2008), p. 285-308. On Mary, see Guillaume Dye, "Lieux saints communs, partagés ou confisqués: aux sources de quelques péricopes coraniques (Q 19:16-33)", in Partage du sacré: Transferts, dévotions mixtes, rivalités interconfessionnelles, eds Isabelle Dépret and Guillaume Dye, Brussels, E.M.E. & Intercommunications, 2012, p. 55-122. On Joseph, see James Kugel, In Potiphar's House, San Francisco, Harper & Row, 1990, p. 28-65.

(٢) يمكننا أيضًا ملاحظة كيف جمع القرآن الإشارة إلى لوط أولًا ثم إلى نوح في صعيد واحد في [سورة الأنبياء: ٧٤-٧٧].

ربما أشار سفر التكوين بالفعل إلى تلك العلاقة بين نوح ولوط[١]؛ في الواقع يمكن اعتبار قصة نجاة لوط وابنتيه الواردة في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين -وقد اعتبرها علماء الكتاب المقدّس- مدخلًا لتفسير قصة نوح[٢]. كما نعثر على هذه العلاقة بين لوط ونوح أيضًا في التقاليد المسيحية[٣]؛ في إنجيل لوقا، الإصحاح السابع عشر، يشير يسوع إلى قصتي نوح ولوط كأمثلة في معرض حديثه عن المجيء المفاجئ لملكوت الله:

(١) تم تناول تلك العلاقة أيضًا في المدراش، على سبيل المثال، في شرح سفر التكوين يأتي ذكر طلب إبراهيم من الله أن ينقذ سدوم إذا كان فيها عشرة أشخاص صالحين (سفر التكوين: ١٨، ٣٢). بالمقارنة بين عائلة نوح وعائلة لوط: «من المحتمل أن يوجد بينهم (أي: السدوميين) عشرة أشخاص صالحين. لماذا عشرة؟ لأنه نجا من جيل الفيضان ثمانية (من الصالحين، وهم نوح وزوجته وأبناؤه الثلاثة وزوجاتهم)، ومع ذلك، لم يستأهل العالم الخلاص بسببهم. ثمّة شرح آخر: لماذا عشرة؟ لأنه اعتقد أنه سيكون هناك عشرة أشخاص، وهم: لوط، وزوجته، وبناته الأربع، وأزواج بناته». Genesis Rabbah 49, 13; I, p. 432. أنا ممتن لمايكل نوفيك على هذه الإحالة.

(٢) ربما تكون رواية القرآن عن ابن نوح الهالك -بدورها- تطويرًا لواقعة هلاك زوجة لوط (تكوين: ١٩، ٢٦). ففي القرآن، لا تلتفت زوجة لوط وراءها بدافع الفضول فتهلك، ولكنها ببساطة واحدة من أولئك الذين بقوا خلف لوط [انظر: الأعراف: ٨٣، الحجر: ٦٠، الشعراء: ١٧١، النمل: ٥٧، العنكبوت: ٣٢، ٣٣، الصافات: ١٣٤، ١٣٥، هود: ٨١]. في إحدى الآيات [النمل: ٥٧]، يوضح القرآن أن الله هو الذي قدّر لها ذلك.

(٣) On this, see Dieter Luhrmann, “Noah und Lot (Lk 17:26-29): ein Nachtrag”, Zeitschrift für die neutestamentliche Wissenschaft, 63 (1972), p. 130-132.

«٢٦ وَكَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا فِي أَيَّامِ ابْنِ الإِنْسَانِ. ٢٧ كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيُزَوِّجُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ نُوحٌ الْفُلْكَ، وَجَاءَ الطُّوفَانُ وَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. ٢٨ كَذلِكَ أَيْضًا كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ لُوطٍ: كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ، وَيَغْرِسُونَ وَيَبْنُونَ. ٢٩ وَلكِنَّ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ خَرَجَ لُوطٌ مِنْ سَدُومَ، أَمْطَرَ نَارًا وَكِبْرِيتًا مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ».

كما نجد هذا الحديث على التوازي بين نوح ولوط في رسالة بطرس الثانية، التي اعتبرت نوحًا ولوطًا رجلَين صالحَين في الشعوب التي هلكت في نهاية المطاف:

«٢ بط ٢:٥ ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوحًا ثامنًا كارزًا للبر؛ إذ جلب طوفانًا على عالم الفجار ٢ بط ٢:٦ وإذ رمد مدينتي سدوم وعمورة حكم عليهما بالانقلاب واضعًا عِبرة للعتيدين أن يفجروا ٢ بط ٢:٧ وأنقذ لوطًا البار مغلوبًا من سيرة الأردياء في الدعارة ٢ بط ٢:٨ إذ كان البار بالنظر والسمع وهو ساكن بينهم يعذب يومًا فيومًا نفسه البارة بالأفعال الأثيمة» (رسالة بطرس الرسول الثانية، الإصحاح الثاني: ٥:٨).

عندئذ، يمكن للمرء أن يتصوّر أنه مثلما فقَدَ لوط في القرآن أحدَ أفراد أسرته: زوجته [الأعراف: ٨٣، الحجر: ٦٠، الشعراء: ١٧١، النمل: ٥٧، العنكبوت: ٣٢، ٣٣، الصافات: ١٣٤، ١٣٥، هود: ٨١]، فإنه يتمم هذه العلاقة المتوازية مع نوح من خلال فقدانه لأحد أفراد أسرته: ابنه.

ومع ذلك فإنّ قصة ابن نوح الهالك في القرآن تُفسّر -في رأيي- على أفضل وجه في ضوء آيات سفر حزقيال؛ حيث يتم التأكيد على أن فضيلة الأب لا يمكنها أن تفعل شيئًا لابنٍ آثم(١). ويستخدم سفر حزقيال مثال نوح، جنبًا إلى جنب مع دانيال وأيوب لإيضاح هذه النقطة(٢):

«١٣ يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ أَخْطَأَتْ إِلَيَّ أَرْضٌ وَخَانَتْ خِيَانَةً، فَمَدَدْتُ يَدِي عَلَيْهَا وَكَسَرْتُ لَهَا قِوَامَ الْخُبْزِ، وَأَرْسَلْتُ عَلَيْهَا الْجُوعَ، وَقَطَعْتُ مِنْهَا الإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، ١٤ وَكَانَ فِيهَا هؤُلاَءِ الرِّجَالُ الثَّلاَثَةُ: نُوحٌ وَدَانِيالُ وَأَيُّوبُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَلِّصُونَ أَنْفُسَهُمْ بِبِرِّهِمْ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. ١٥ إِنْ عَبَّرْتُ فِي الأَرْضِ وُحُوشًا رَدِيئَةً فَأَثْكَلُوهَا وَصَارَتْ خَرَابًا بِلاَ عَابِرٍ بِسَبَبِ الْوُحُوشِ، ١٦ وَفِي وَسْطِهَا هؤُلاءِ الرِّجَالُ الثَّلاثَةُ، فَحَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنَّهُمْ لا يُخَلِّصُونَ بَنِينَ وَلا بَنَاتٍ. هُمْ وَحْدَهُمْ يَخْلُصُونَ وَالأَرْضُ تَصِيرُ خَرِبَةً. ١٧ أَوْ إِنْ جَلَبْتُ سَيْفًا عَلَى تِلْكَ الأَرْضِ وَقُلْتُ: يَا سَيْفُ اعْبُرْ فِي الأَرْضِ، وَقَطَعْتُ مِنْهَا الإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، ١٨ وَفِي وَسْطِهَا هؤُلاَءِ الرِّجَالُ الثَّلاَثَةُ، فَحَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنَّهُمْ لا

(١) In her article "Un Noé coranisé", Comerro notes the relationship between Ezechiel and the Qurʾānic passage on Noah's lost son. She writes: "Le récit de la sourate 11 (25-48) est particulièrement intéressant puisqu'il comporte un élément dont on n'a trouvé aucun parallèle narratif en dehors du Coran, bien qu'il ait été rapproché d'un passage du livre biblique d'Ézéchiel (14, 14-16)" (p. 628).

(٢) قد ينظر إلى نوح بوصفه مثالًا مناسبًا بشكلٍ خاصّ لسفر حزقيال؛ لأن أحد أبنائه (حام)، يبدو أنه آثم في رواية نوح الثمل في سفر التكوين ٩.

يُخَلِّصُونَ بَنِينَ وَلا بَنَاتٍ، بَلْ هُمْ وَحْدَهُمْ يَخْلُصُونَ. ١٩ أَوْ إِنْ أَرْسَلْتُ وَبَأً عَلَى تِلْكَ الأَرْضِ، وَسَكَبْتُ غَضَبِي عَلَيْهَا بِالدَّمِ لأَقْطَعَ مِنْهَا الإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، ٢٠ وَفِي وَسْطِهَا نُوحٌ وَدَانِيالُ وَأَيُّوبُ، فَحَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنَّهُمْ لا يُخَلِّصُونَ ابْنًا وَلاَ ابْنَةً. إِنَّمَا يُخَلِّصُونَ أَنْفُسَهُمْ بِبِرِّهِمْ» (حزقيال ١٤، ١٣:٢٠).

من المفترض أن يعكس اختيار نوح كمثال في سفر حزقيال ١٤، قبل كلّ شيء، قناعة بصلاحه استنادًا إلى الآية التاسعة في الإصحاح السادس من سفر التكوين (إذا تجاوزنا عن واقعة فقدانه الوعي ثملًا كما جاء في سفر التكوين٩)[١]. كما ورد ذكره جنبًا إلى جنب مع دانيال وأيوب، وهما الآخران شخصيات معروفة بالصلاح والصبر في المحن.

بعد عدّة إصحاحات، يعود الصوت الإلهي في سفر حزقيال إلى هذه النقطة مرة أخرى، وقد أعلن الله: «هَا كُلُّ النُّفُوسِ هِيَ لِي. نَفْسُ الأَبِ كَنَفْسِ الابْنِ، كِلاَهُمَا لِي. اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ» (حزقيال ١٨ :٤). تكمن أهمية

(١) A similar conviction is found in Wisdom/Ben Sira 14, 17, Jubilees 5, 19, and 1 Enoch 67, 1, which (alluding to Gen 6, 9) relates: "In those days, the word of God came unto me, and said unto me, "Noah, your lot has come up before me—a lot without blame, a lot of true love" (transl. Isaac). It also seen in the passage of 2 Pet (2, 5) quoted above, and in Heb 11, 7: "It was through his faith that Noah, when he had been warned by God of something that had never been seen before, took care to build an ark to save his family. His faith was a judgement on the world, and he was able to claim the uprightness which comes from faith".

تلك الآيات لغرضنا هنا في الأسلوب الذي يتحدث به سفر حزقيال -نظريًّا- عن ابن نوح (مع دانيال وأيوب) الذي سيهلك بسبب إثمه[١]. وفي القرآن لم يَعُد هذا الابن حديثًا نظريًّا. لقد صار شخصية حقيقية.

يمكننا أيضًا العثور على تحوُّلٍ موازٍ لهذا التحول من النظري إلى الواقعي في الآيات الخاصّة بمحاورة داود مع الخصمين في [سورة ص: ٢١-٢٦]. في الإصحاح الثاني عشر: ١-١٣ من سفر صموئيل الثاني، أخبر النبي ناثان داود مثالًا افتراضيًّا عن رجلين، أحدهما سرق نعجةً من الآخر، حتى يقدّر حجم الخطيئة التي ارتكبها عندما أخذ داود (بشبع) من زوجها (أوريا). في القرآن لم يَعُد هذان الرجلان يمثلان أفقًا افتراضيًّا؛ بل ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ وأخذ على عاتقه مهمة الحكم بينهما[٢]. وهكذا حدث شيء مماثل مع ابن نوح المذكور في سفر

---

(١) Comerro puts this otherwise: “Le motif du ‘fils perdu’ peut être considéré d’un point de vue intertextuel comme une mise en récit d’Ézéchiel 14, 16 sans que cela indique pour autant une transmission directe” (p. 628).

فكرة أن هذا الابن حاول الهروب من الفيضان عن طريق تسلّق جبل فكرة منطقية بما فيه الكفاية، وربما ليست بحاجة إلى تفسير. ومع ذلك تجدر الإشارة على الأقلّ إلى أن كهف الكنوز السرياني قد ذكر أطفال سيث الذين حاولوا دون جدوى أن يتسلقوا جبل الفردیس من أجل الهروب من مياه الفيضان، بعد أن أوصدت الفُلك دونهم: «ركض أطفال سيث نحو نوح متوسلين إليه أن يفتح لهم باب الفُلك، وعندما رأوا الأمواج التي أحاطت بهم من كلّ جانب، انتابهم جزع شديد، وسعوا إلى تسلق جبل الفردیس لكنهم لم يتمكنوا من ذلك». (La caverne des trésors, 18, 12-13 (R.Or. وربما تأثر هذا النص الوارد في كهف الكنوز جزئيًّا بالنبوءة ضد رئيس صور الواردة في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر حزقيال ٦-٩.

(٢) ومع ذلك، تشير الآية (٢٤) من (سورة ص) إلى خطأ داود؛ فبعد أن قضى بين الخصمين، استغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب. حول هذه الآيات، انظر:

=

حزقيال١٤. يحوّل مصنّف القرآن هذا الابن النظري -الذي سيموت نظريًّا بسبب خطيئته- إلى شخصية حقيقية تموت حقًّا من أجل معصيته. ويكشف الحوار اللاحق بين نوح والله عن سبب هذا التحول: تهدف قصة ابن نوح الكافر إلى توضيح إحدى الحجج المركزية للقرآن: إن جميع الكافرين، بما في ذلك من ينتمون إلى أسرة المرء، يجب أن يُتركوا في الخلف.

=

Speyer, Die Biblischen Erzählungen im Qoran, p. 378 and The Qurʾān Seminar Commentary, ed. Mehdi Azaiez, Gabriel Said Reynolds, Tommaso Tesei and Hamza M. Zafer, Berlin, De Gruyter, 2016, p. 326-332.